الفصل الثامن والعشرون

فيه كتاب مراقبة المقربين ومقامات الموقنين [١]

• ذكر المقام الأول من المراقبة:

العبدُ إذا قوى يقينه عَلِمَ عِلْمَ يقينٍ أنّ أوقاتَه هذه التى وُكل تربيته إليها، وجُعل سبب نمائه وحياته منها، هى مكررةٌ عليه فى البرزخ، ومردودة إليه يوم القيامة، ومعادة عليه فى الجنة، إن دخلها ليس يُجازَى هناك إلا بمقدار ما أعطى من المعاملة ههنا، ولا يُعْطَى ثَمَّ إلا بقدر ما وُفّق ههنا، لا يُسأل إلا عن أوقاته، ولا يُحاسَب إلا بساعاته، ولا يُجازَى إلا عليها، ولا تُرَدُّ عليه أوقات غيره كما لا يُعاد هو فى صورة غيره، ولا يُعطَى جزاء سواه كما لم يُعامَل ههنا معاملة سواه، ولكن الله يُبْدئ ويعيد، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الاعراف:٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩] من تدبره، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] أى تدبروا آياته، هل ترون جزاء هؤلاء لوصف هؤلاء، أم هل تجدون وصف هؤلاء له جزاء أولاء؟ ومثله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء:١٢٣] فنفى أمانيهم بليس، وأثبت حكمه بلكن، وهى مُضمرة فى الكلام، المعنى: لكن من يعمل سوءًا يُجْزَ به. وفسّره رسول الله ﷺ فقال: «المؤمن يُجزَى بسيئته فى الدنيا من المصائب والجوع والعُرى، والمنافق تبقى ذنوبه عليه حتى يُوفَّى يوم القيامة، كأنه حمار يُجازَى بها فى الآخرة».

---

(١) انظر فى المراقبة: إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٩٣ وما بعدها، مدارج السالكين: ٢/ ٦٧ وما بعدها، عوارف المعارف، ص ٤٣٠ وما بعدها.

وكان الحسن يقول. عبادَ الله، اتقوا هذه الأمانى، فإنّها أودية النَّوكَى[١] يُحلّون فيها، والله ما أتى عبدٌ اللهَ بأمنيته[٢] خيرًا من دنياه ولا آخرته. وقال بعضُ العلماء: كلَّما قَلَّ العقل كثرت الأمانى.

وكتب بعضُ السلف، إلى بعض إخوانه من أبناء الدنيا يعظه: أخبرنى عن هذا الذى تكْدَحُ فيه، وتحرص عليه من أمر الدنيا، هل بلغت فيه ما تريد، وأدركت ما تتمنَّى؟ فقال: لا والله. فقال: أرأيتك هذا الذى أنت حريص عليه لم تنل منه ما تريد، فكيف تنال من الآخرة وقد أعرضت عنها وصرفت عنها؟ فما أراك تضرب إلا فى حديد بارد.

وقال بعضُ العلماء: من ظنّ أنه يدخل الجنة بغير عمل فهو متمنٍّ، ومن قال أدخُلُها بعمل فهو متعنٌّ. وقال بعضهم: الأمانى تُنقص العقل. وفى الخبر: «ليس الإيمان بالتحلّى ولا بالتمنّى، ولكن ما وقَر فى القلب وصدّقه العملُ».

ومن هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقال فى ضده: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ [غافر: ٤٠]. وقال فى معناه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: ١٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٤]. وقال فى مثله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ثم قال: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فأبطل حسبانهم، وأدحض حكمهم، ثم أحكم ما عنده بقوله: ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ [الجاثية: ٢١] أى هم كما كانوا فى المحيا محسنين يعملون الصّالحات كانت لهم الحسنى فى الممات، وكما كانوا فى المحيا مفسدين يعملون السيئات كانت لهم السوأى والمكروهات.

---

(١) النوكى: الحمقى، مفرده: أنوك.

(٢) فى (ك): «بتمنّيه».

وقيل: كانت هذه الآية مبكاة للعابدين؛ لأنها محكمة غير متشابهة. وكذلك جميع ما ذكرناه من نظائرها هو من المحكم الذى هو أم الكتاب، غير منسوخ ولا متشابه. وهذه الآى من عزائم القرآن، وهو من أحسن ما أُنزل علينا من ربّنا، الذى أمر الله سبحانه وتعالى باتباعه، ووصف أهل الهدى وأولى الألباب باستماعه فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨] قيل: عزائمه ووعيده.

وقد قيل فى قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] قيل: الرجاء الخائب بالاغترار والظن الكاذب. وقيل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنات فوجدوها عند المحاسبة سيئات. والصحيح ما صحّ بعد الحساب، والحق ما ثقل عند الميزان، كما قال تعالى: ﴿وَالوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ﴾ [الاعراف:٨] قيل: العلم والعمل. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الاعراف:٥٢]، ثم قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الاعراف:٧]، ثم قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر:٤٨] قيل: كانوا يقدِّمون الذنب، ويؤخِّرون التوبة، ويسوِّفون بالمغفرة. وكانت هذه الآية محزنة للخائفين، ومخافة للعارفين. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه أعدّ النار للكافرين، ثم أمر المؤمنين باتقائها، ثم وصف الكافرين فيها، وخوَّف عباده بها، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]. وقال سبحانه: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

ويقال: إنّ العبد يستحق النارَ بأول معصية عصى مولاه بها بعد المعرفة، ثم هو بعد ذلك فى المشيئة. وإنّ فى كل عبد خصلة كريهة يُخاف عليه منها.

وكان عبد الواحد بن زيد يقول: ما صحَّ خوف خائف قط ظنَّ أنه لا يدخل النار. وما صدق خوفُ من ظنّ أنه يدخل النار فظن أنه يخرج منها. أى أنّ حقيقةَ الخوف خشيةُ دخول النار، ثم الخلود فيها.

وقد روينا مثل ذلك عن الحسن وقد ذُكر له الرجل الذى يخرج من النار بعد ألف عام، فبكى ثم قال: يا ليتنى مثل ذلك الرجل.

وروى عن رسول الله ﷺ: «من قال إنّى فى الجنّة فهو فى النار. ومن قال: إنّى عالم فهو جاهل».

وروى عنه ﷺ: «من أراد أن يعلم كيف منزلته من الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله فى قلبه، فإنّ اللهَ يُنزل العبدَ منه بحَسْب ما أنزله من نفسه».

○ ذكر المقام الثانى من المراقبة:

ثم يعلم العبدُ يقينًا أن لكل عمل صالح نعيمًا فى الجنة، وروحًا فى البرزخ. ولكل عملٍ حسن ومعرفةٍ خالصة مقامًا فى الجنة، وقد قُسم جزء هناك لعطاء معاملة ههنا. وأن لكل عمل سيئ وجهل قبيح عذابًا فى الآخرة، وكَرْبًا فى البرزخ، ومقامًا من النار، قد قسم جزء هناك لعمل ههنا. ثم قد أخفى اللهُ ذلك الجزء من الخير والشر، وأظهر أعمالهما للحاكمين، وأبان لهما طريقين يجريان إلى دارين، حكمةً منه. ثم قدّم المعاملات من المعنيين، وأخّر المثوبات من النوعين، إحكامًا منه للأفعال، واستسعاءً للعبد بالأعمال، ابتلاءً منه لتُجزَى كلُّ نفس بما تسعى، مِنّةً منه ورحمةً، وقدرةً منه ومحبةً، لا يسئل عما يفعل؛ لأنه مَلك قهّار عزيزٌ جبار، وهم يسئلون؛ لأنّهم عبيد مقهورون، وذُلُل مجبورون، ولا تُضرب له الأمثال؛ لأنه قد جاوز الاحتجاج والاعتدال، ولا يُسوَّى بالعبيد؛ لأنه قد فات التقدير والتحديد، فله الحجة البالغة، والقدرة النافذة فى كل شىء، ليس كمثله شىء فى جميع ذلك كله.

وقد أحكم الله تعالى ما ذكرناه فى توحيد نفسه بالمشيئة والأفعال، ونهيه عن الشركِ به وضرب الأمثال. وعجب ممن يسوِّى بينه وبين خلقه فى الأحكام، وجعل ذلك جحودَ النعمة وشركًا فى ملكه، وأخبر به عن المشركين وإضلالهم أتباعَهم بعد ضلالهم المبين، وإضلالهم بتسويتهم بينه وبين عباده فى الأحكام، فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ۞ إِذْ

﴿نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العَالَمِين * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء:٩٦ ـ ٩٩]. قيل: أُنزلت فى القدرية؛ لأنهم أضافوا الحول والقوّة فى الشر إلى الخلق، فسوّوا بينهم وبين الخالق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦]، فأضاف الأعمال إلى أنه خلقها كخلقه إياهم، فهم المجرمون الذين أُنزلت فيهم هذه الآية، التى ذكر فيها القدرية فوُصفوا بإنكارهم، فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَىءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٧ ـ ٤٩]. هم المجرمون الذين أضلوا أتباعهم، وهم الغاوون الذين كُبكِبُوا فى النار مع أشياعهم.

وقد أحكم الله تعالى تفضيل ما ذكرناه آنفًا فى خمس آيات محكمات تَنْظِمُ جمل معانى ما ذكرناه، تركنا شرح ذلك وبسطه، خشيةَ الإطالة، لأنا لم نقصد الاحتجاج فى الاستدلال، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ﴾ يعنى: فضَّل الموالى على العبيد ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ يعنى الموالى ﴿بِرَادِّى رِزْقِهِم عَلَى مَا مَلَكَتْ أيمانُهُم فَهُم فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل:٧١].

والآية الثانية قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِى مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [الروم:٢٨] أى: فكذلك أنا لا شريك لى من عبيدى، فلا تجعلوا لى ما لم أجعل أحدًا لا خلقى ولا عبيدى عليكم، إذ لم أسوِّ بينكم وبين عبيدكم، فلا تشركوا عبيدى فى حكمى.

والثالثة قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَىءٍ﴾ يعنى: الإنفاق ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ [النحل:٧٥] فجعلهما على وصفين، أحدهما: بخيل لم يقدره على الإنفاق، ثم ذمَّه بالبخل والعجز وهو الذى أعجزه ومنعه، وجعل الآخر جوادًا إذ قدره وأعطاه الإنفاق، ثم مدحه بالجود.

وقال فى الآية الرابعة: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى

شيء﴾ هو الحكمة والعلم، ثم قال. ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ﴾ ؟ [النحل:٧٦] فجعل له عبدين: أحدهما: سفيه جاهل أبكم عن الحكمة، ولم يقدره على علم، ولم يعطه استقامة، ثم ذمّه بوصفه ومقته لمنعه. وجعل الآخر آمرًا بالعدل عن أمره، مستقيمًا على صراطه المستقيم الذى هو عليه، وهو أقامه، كما قال: ﴿هذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، فهل يسلك أحد طريقه إلا به؟ وهل يجوز عبد على سبيله إلا بحوله؟ ثم مدحه بإعطائه إياه ووصفه بوصفه، ثم علَّم سبحانه أن للعقل فى هذا تشبيهًا وتمثيلاً بخلقه، وتجويزًا وتظليمًا من خالقه، على قياس العقول، أن من فعل بعبدين له مثل هذا، ثم مدح أحدهما وهو الذى أعطاه وأقدره، وذم الآخر وهو الذى منعه وأعجزه، أنه قد ظلمه، فحسم ذلك عزّ وجلّ بنهيه، وأحكم النهى عن التمثيل به.

وفى الآية الخامسة الفاصلة القاضية التى نهانا فيها أن نضرب له بنا الأمثال مثل ما أجرى علينا من الأفعال فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لله الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤]. فوكّد ذلك بتحقيق علمه وغاية جهلنا، ثم أيّد هذا بقوله سبحانه: ﴿لاَ يُسأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسأَلُونَ﴾ [الانبياء:٢٣] فسلّم الراسخون فى العلم الأحكام كلّها للحاكم، فسَلِمُوا من عذابه، وآمن المؤمنون بجميع الأقدار أنّها عدل وحكمة من حاكم عادل حكيم، فأمِنُوا من عقابه؛ لأنهم آمنوا بالمتشابه، وأعطاهم بفضله من فضله جزيلَ ثوابه، فهلك الزائغون بالأقاويل، تتبعًا للشبهات وابتغاءً للتأويل، فوقعوا فى الضلال، وهلكوا غدًا فى المآل.

وقد روى الضحاك عن ابن عباس تصديقَ ما ذكرناه، قُبيل قوله عزّ وجلّ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]. قال ابن عباس: طبق أسفل من طبق، سبع دركات على قَدْر أعمالهم، كذلك يقتسمون الدركات بقدر ما اجترموا، كما اقتسم أهلُ الجنة الدّرجات بالفضائل، ﴿لِكُلِّ بابٍ مِنهُم جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يعنى: نصيبًا معلومًا مفروضًا لكل طبقة سكان.

وقال بعضُ العلماء: تالله ما فى الجنة قصر ولا نهر ولا نعيم إلا عليه اسم

صاحبه مكتوب، واسم ذلك العمل الذى هو جزاؤه مكتوب. وكذلك جهنم ما فيها غِلٌّ ولا قيد ولا شِعْب ولا عَذاب إلا وعليه وصفُ ذلك العمل الذى هو جزاؤه، واسم صاحبه مكتوب. وقال: قد أدخلهم الجنةَ قبل أن يطيعوه، وأدخلهم النارَ قبل أن يعصوه.

وقال بعض العارفين أيضًا: الخَلْقُ أهونُ من أن يعصوه عزّ وجلّ بما لم يُرِد، واللهُ أعزُّ من أن يرضيه إلا ما أحبَّ، لكنه غَضِبَ على قومٍ فى العدَم، فلمّا أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الغضب، ليُحلَّهم دارَ الغضب، ورضى عن قومٍ فى القِدَم، فلما أظهرهم استعملهم بأعمال أهل الرضا، ليُحلَّهم دار الرضا.

وقال بعضُ أهل المعرفة: أظهر الخلقَ فى العدمِ، وأوجدَهُم إياهم اقتدارًا، ثم أظهر لهم أعمالهم، وخيَّرهم الأعمال منه اختيارًا، فاختار كلُّ عبدٍ منهم عملاً بعينه، ثم طوى الأعمال فيهم، وطواهم فى الغيب، فلما أظهرهم الآن فى الوجود حجبهم بالعقول، وأجرى كلُّ عبدٍ منهم اختياره لنفسه، فبذلك وقعت الحجة عليهم إذا كشف لهم غدًا ما حجبه عنهم اليوم.

وحُدِّثتُ عن بعضِ هذه الطائفة قال: كان قد بقى فى نفسى شىء من القدَر، وكنت أستكشفُه من العلماء فلا ينكشف، حتى قيّضَ اللهُ تعالى لى بعضَ الأبدال فاستكشفته إياه، فقال: ويحك ما تصنع بالاحتجاج، نحن يُكشَف لنا عن سِرِّ الملكوت، فننظر إلى الطاعات تنزل صورًا من السماء حتى تقع على جوارحِ قوم فتتحرك الجوارحُ بها، وننظر إلى المعاصى صُورًا مصوّرة تنزل من السّماء، فتقع على جوارحِ قومٍ فتتحرك بها. قال: فكشف عن قلبى القَدَر، وأوقع لى العلمَ بمشاهدة القُدْرة[1].

وكنتُ أنا مرةً خاطبتُ بعضَ إخواننا فى شىء من الاستطاعة مع الفعل، لا أنّها[2] قبله ولا بعده، فتكلمت فى ذلك بمذهبِ المثبتة من أهلِ الكلام، قبل أن ينكشف لى مُشاهدةُ علمِ اليقين، فرأيتُ فى النوم كأنّ قائلاً يقول: القدَر من

(١) فى (ك): «مشاهدة اليقين».

(٢) فى (ط): «لا أنه».

القُدْرة، والقُدرة صفة القادر، فيقع القدر على الحركة ولا يَتبيَّن، فتظهر الأفعالُ من الجوارح، أو قال: فتتحرك الجوارح بالأفعال وتَستَبين[1]، فكيف يُتكلم فى شىءٍ لا يتبيَّن. فجعلتُ على نفسى أنّى لا أناظر أحدًا منهم بعد ذلك فى شىء من هذا الباب.

وقد حدّثونا عن بعض العابدين قال: صليتُ من السّحر ركعتين ثم غفوت بعدهما، فرأيت قصرًا عاليًا ذا شُرُف بِيض كأنها الكواكب، فاستحسنته، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقيل لى: هذا ثواب هاتين الركعتين، ففرحتُ فجعلتُ أطوف حوله، فرأيت شُرفةً من رُكنه قد وقعت فشانه ذلك، فاغتممتُ، وقلت: لو كانت هذه الشّرفة فى أعلاه فى هذا الموضع لتمّ حُسْنُ هذا القصرِ، فإنّ ثَلْمَها قد شانه. فقال لى غلام هناك: قد كانت هذه الشّرفة فى مكانها من القصر، إلا أنك التفتَّ فى صلاتك فسقطت.

وحدثونا عن بعض الزهاد أنه كُوشف مقامه من الجنة، فرأى الحور العين، وقُلن: نحن أزواجك. فلما خرجتُ تعلقت بى الحور وقلن: ننشدك الله إلا ما حسَّنت أعمالك، فإنّك كلّما حسنتها ازددنا لك حسنًا، وازددت بنا نعيمًا.

وحدثونا عن رابعة العدوية رحمها الله تعالى قالت: سبَّحتُ ذاتَ ليلة تسبيحات من السَّحَر، ثم نِمْتُ، فرأيت شجرةً خَضِرةً نَضِرة لا توصف عِظَمًا وحسنًا، وإذا عليها ثلاثة أنواعٍ من الثّمر لا أعرفه من ثمار الدنيا، كثُدَى الأبكار؛ ثمرة بيضاء وثمرة حمراء وثمرة صفراء، فهنّ يلمعن كالأقمار والشموس فى خلال خضرة الشجر. قالت: فاستحسنتها، فقلت: لمن هذه؟ فقال لى قائل: هذه لك بتسبيحاتك آنفًا. قالت: فجعلتُ أطوف حولها فإذا تحتها ثمرة منتشرة على الأرض فى لون الذهب، فقلت: لو كانت هذه الثمرة مع هذه الثمار على هذه الشجرة لكان أحسن، فقال لى الشخص: قد كانت هناك، إلا أنك حين سبَّحت تفكَّرت هل اختمر العجين أم لا، فانتثرت هذه الثمرة.

فهذه عبرة لأولى الأبصار، ومواعظ لأهل التقوى والأذكار.

---

(١) فى (ط): «ولا تتبين».

● ذكر المقام الثالث من المراقبة:

رُوى أن كعب الأحبار قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: لو لقيتَ الله تعالى بعمل سبعين نبيًا لخشيتَ أنك لا تنجو من هول ذلك اليوم.

وقال بعض السلف: لو أنّ العبد كان يُجَرُّ على وجهه من أول الدنيا إلى قيام الساعة فى طاعة الله وعبادته لاحتقره يوم القيامة، لِمَا يرى من الزلازل والأهوال.

وفى الحديث: «معالجةُ مَلَكِ الموت أشدّ من ألف ضربةٍ بالسيف. وإنّ ألَم شعرةٍ من الموت لو وُضع على جميع الخلائق لماتوا. وإنّ بين الخلائق وبين الموت وبين دخول الجنة مائةَ ألفِ هول، كلّ هول منها يزيد على ألم الموت مائة ألف ضعف، لا ينجو العبد من كل هول منها إلا برحمة الله».

فيحتاج العبدُ إلى مائة ألف رحمة تنجيه من تلك الأهوال، يكون ذلك العدد من الرحمة مقسومًا على مائة ألف حسنة أعطيها من حسناته فى الدنيا التى أحسن بها إليه، يكون مكانًا لظهور الرحمة، وطريقًا لعطائها غدًا، حكمةً من الحكيم، وقِسْمًا مدبرًا من الرحيم، لأنّ الصالحات طرق الجزاء، والحسنات كلها عن الرحمة الواحدة التى سبقت له بها النجاة، ثم سقطت فى طرقات الأعمال أماكن الثواب[1]، فيعطى ذلك ههنا اليوم، وهو العطاء الأول، بحُسن تَوْفيقه ولطف عنايته، ويعطى الجزاء هناك غدًا بفضل رحمته وتمام نعمته، ذلك تقدير العزيز العليم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قيل فى الخبر: «ما جزاءُ من أنعمنا عليه بالتوحيد إلا الجنة».

وقال بعض العلماء: وليس لقول لا إله إلا الله جزاء إلا النظر لوجه الله تعالى.

والجنّةُ جزاء الأعمال. ألم تَرَ أنه لو حُرِم التوحيد اليوم لَحُرِم الجنة، ولو مُنع الإسلام اليوم لم يغفر الله له أبدًا؟ كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ

(١) فى (ك): «والحسنات أماكن الثواب».

حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال: ﴿إِنَّ الذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، فهذا مما لا حيلة فيه ولا سبيل إليه، وقد قال: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]. قيل: هو أهل أن يعطى التقوى، ومن أعطاه التقوى فهو أهل أن يعطيه المغفرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف ٥٦]. وقال سبحانه: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] مع[1] قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فمن كانت أعماله الحسنات فهو من المحسنين، ومن كانت أعماله سيئة فهو من المسيئين. فاشتقاقُ الحسنةِ من الحُسْن، وجزاؤها الحسنى، وهي الجنة. واشتقاقُ السيئةِ من السّوء، وجزاؤها السوأى، وهي النار. وقد سبق خلقهما قبل خلق الخلائق، وفرغ من نصيب العباد من الجنة والنار. وسئل رسولُ الله ﷺ عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه». فهذا أولُ المراقبة، لأنها عن غير المشاهدة، ترى الرقيب ثم تراقب.

وقد خص الله تعالى بالطيّبات من الأعمال الطيّبين من العمّال، وابتلى بالخبيثات من الأعمال الخبيثين من العمال، وفرغ من ذلك بعلمه، وقدّره بحكمه، وأخفاه بلُطفه، فقال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾، قيل: الخبيثات من الأفعال والأقوال للخبيثين من الرجال. وقال: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور: ٢٦]، قيل: الطيبات من الأعمال والمقال للطيّبين من الرجال.

ثم أخبر بحسن خاتمة أوليائه وسوء خاتمة أعدائه، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]،

(١) في المطبوعة: «إلى»، وهي خطأ والصواب من المخطوط.

قيل: طابت حياتُهم فطابت وفاتهم، وطابت أعمالهم فطاب الموت لهم.

وقال فى وصف الظالمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧]، أظلمتْ حياتهم وأعمالهم، فأظلمتْ قبورهم ومثواهم.

فمن شهد ما ذكرناه يقينًا دامت مراقبته، وحسنت معاملته، واتصلت أوراده، وكثر من الخير ازدياده، ونَفذت مشاهدته لصفاء يقينه ودوام مزيده، فكان ممن ندب الله عزّ وجلّ فى قوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وكان ممن وصف إذ يقول: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون:٦١]، أى: يسارعون الموت ويسابقون الفوت، ويسارعون الغافلين ويسابقون البطالين. ولعل بطالاً من الشاطحين، جاهلاً بحكمة الحكيم، يتوهم علينا بظنه أنّا نقول: إنه لا يعطى إلا شيئًا بشىء. ولسنا نقول ذلك، إنما نقول: إنّه يعطى شيئين بلا شىء. فهو المعطى الأول للشىء الذى هو الظرف والمكان من العبادة والإيمان، وهو الذى يعطى الشىء الذى هو النعيم والجنان، إلا أنّه أجرى ذلك بتقديره فى مجارى حكمته، كما سبق ذلك فى علمه، ثم أنشأه فى معلومه، لأنّه حكيم عليم.

• ذكر المقام الرابع من مراقبة الموقنين:

ثم يعلم العبد يقينًا أنه تُنشر له سنوه فى الآخرة شهورًا، وتُبسط شهوره أيامًا، وتُفترش أيامه ساعات، وتُكشف ساعاته أنفاسًا، ثم يُسأل عن كل نفَس، ويُنشر له بكل فعلة فعلها وإن صغرت ثلاثة دواوين: الأول: لم فعلتَ؟ وهذا مكانُ الابتلاء بالأحكام، فإن سلم له نُشر له الديوان الثانى وهو: كيف فعلتَ؟ وهو موضعُ المطالبة بصحّة العلم، فإن صح له هذا نُشر عليه الديوان الثالث وهو: لمن فعلتَ؟ وهذا مكانُ المطالبة فى الإخلاص، فإن اعتل بكيف، أو بلم، أو بلمن، خيف عليه الهلكة، إلا أن يتعطف عليه الكريم المنّان من حيث لا يحتسب، فيستنقذه

ويسمح له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الأنبياء:٤٧] أي: جئنا بها، أي أحضرناها. وقرئت بالمد «آتَيْنَا بِهَا»[1] بمعنى: جازينا بها. وقال عزّ وجلّ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]. وقيل: هذه أحكم آية في كتاب الله عزّ وجلّ، وهي مجملة مبهمة عامة. وكان رسول الله ﷺ إذا سئل عن شيء لم يوح إليه فيه بشيء يقول: «ما عندي فيه إلا هذه الآية الجامعة الفاذة. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية».

ولما تعلم صعصعة جد الفرزدق من أسفل القرآن إلى هذه السورة، قال: حسبي حسبي قد عرفتُ الخيرَ والشرَّ، فقال رسول الله ﷺ: «انصرف الرجلُ فقيهًا».

وقيل: الذَرَّة قشرة الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رءوس الإبر.

وروى عن ابن عباس أنه قال: إذا وضعتَ كفّك على التراب، ثم رفعتها، فكلُّ شيءٍ تعلق بها من التُّراب فهو ذرّة. وقد قيل: أربع ذرات خردلة. وذكر بعض العلماء أن الذرة جزء من ألفِ جزءٍ من شعيرة.

ففي الأعمالِ ما يزن هذا الشّبح، وما يثقل به هذا الخفاء، فلذلك أخبر به الخبيرُ، وحذّر منه الرءوف.

وفي معنى ما ذكرنا آنفًا مَنْ حَسِبَ أنّه يدخل الجنة بعمل فهو مُتَعَنٍّ، ومن حسب أنه يدخلها بغير عملٍ فهو مُتَمَنٍّ. يعني أنه ينبغي أن يعمل ما عليه، ولا ينظر إليه، ثم يتوكل في ذلك على الله عزّ وجلّ، ويرجو قبوله بكرمه، ويخاف ردّه بعدله. ولذلك مدح الله سبحانه وتعالى عبادَه الصابرين له، المتوكلين في أعمالهم عليه، فأنعم أجرهم فقال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨، ٥٩]. فالمزيد في الجنة بفضل الله ورحمته هو تأبيد جزاء المعاملة الموهوبة اليوم، ودوام خلود العامل في تأبيد جزائه. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى:٢٣]، مع قوله: ﴿لِلَّذِينَ

(١) هذه قراءة مجاهد، انظر: البحر المحيط ٦/٣١٦، المحتسب ٢/٦٣، معاني القرآن، للفراء، ٢/٢٠٥، إعراب القراءات السبع، لابن خالويه، ٢/٦٢.

أَحْسَنُوا الحُسْنَى وزِيادةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ومثل قوله: ﴿فأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا:٣٧]، ومثله: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، ونحوه: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصص:٥٤] أي: وبما يدرأون بالحسنة الحديثة السيئة القديمة. فلما استعملهم فى الدنيا بعملين: بالصبر، وبدرء السيئة الماضية بالحسنة المستأنفة، أعطاهم فى الآخرة أجرين. وهذا من الكلام المحذوف الموجز، فمحذوفه: «وبما يدرأون» أى: وبما يدفعون أيضًا، فلما حُذفت «بما» أشكل الكلام، فأشبهت الواو واوَ النسق، ومؤخره السيئة، والمعنى: يدفعون السيئة التى تقدمت منهم بالحسنة التى يعملونها بعدها، فتكون الحسنةُ المستقبلةُ رافعةً لعقابِ السيئةِ الفارطةِ منهم.

ومن أحسن الصبرِ صبرٌ عن المعصية[1]، ومن أحسنِ الحسنات التوبةُ النصوحُ بعد ما سلف من الذنوب والفضوح. فكأنّهم قد عملوا عملين: صبروا عن الشهوة، ودفعوا بالتوبة ما سلف من السيئة، فأعطاهم أجرين لمّا استعملهم بعملين، إذ لا صبر إلا به، ولا توبة لهم إلا منه، كما قال تعالى: ﴿واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ﴾ [النحل:١٢٧]، [وقال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾][2] [التوبة:١١٨]، وقال فى مثله: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللهِ﴾ [النساء:٩٢]. وليس للعبدِ أوَّليّةٌ فيما مَنَّ اللهُ، وإلا كانَ شريكًا بالاسمِ الأوّلِ[3].

ومن أحسن الحسنات مراقبةُ الرقيبِ عند خطرات القلوب، ومن أفضل القربات محاسبةُ النفس للحسيب واستجابتها بطاعة الحبيب.

وكذلك حكمتُه فى مزيد أهل النار، ودركات بعضهم على بعض فى العتوّ والفساد، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فوقَ

(١) فى (ط): «الصبر على المصيبة» وأثبت ما فى (ك).

(٢) هذه الآية ساقطة من المطبوعة وهى فى الأصل المخطوط.

(٣) هذه الجملة كانت فى المطبوعة كما يلى: «وليس من العبد أو إليه فيما من الله وإلا كان مشركًا فى اسم أوّل». وأثبت ما فى (ك).

العَذَابِ﴾ [النحل:٨٨] أى: زدناهم عذابًا فوق عذاب الذين كفروا ولم يصدّوا عن سبيل الله. وبمعناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء:١٦٨] فلم يغفر لهم بكفرهم، ولم ينوِّر لهم طريق الهداية بظلمهم. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠]، فصار عليهم عذابان: عذاب جهنم بما لم يتوبوا، وعذاب الحريق بما فتنوا المؤمنين.

ومثله قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] أى: يريد أن يعذبهم بها فى الدنيا، ويريد أيضًا أن تزهق أنفسهم على الكفر ليعذبهم بها فى الآخرة، وهذا نص صريح أنّ الله تعالى يريد الكفرَ من الكافرين[١]، لأنَّ «تزهق» انتصب بالعطف على «يريد» الأول، والواو فيه للجمع. وقد قيل[٢]: إن فى هذه الآية تقديمًا وتأخيرًا، فيكون المعنى: ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الدنيا، إنّما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة، فأراد أن يجمع العذابين عليهم فى جهنم، أحدهما: الأموال والأولاد، والثانى: لإرادته تعالى أن تخرج نفوسهم على الكفر. فمن لا مال له ولا ولد له منهم كان عليه عذاب واحد فى جهنم، لأجل قوله تعالى: ﴿بها﴾ أى بسببها. وهذا مُواطئ للخبر الذى جاء أن «فقراء الكفار يدخلون النار بعد أغنيائهم بخمسمائة عام»؛ لأجل الفقر الذى كانوا فيه فى الدنيا، كما أن الفقراء من المؤمنين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأجل غنى أولئك.

وفى الخبر أيضًا: «وتدخل المَرْضَى إلى الجَنة قبل الأصحّاء بأربعين خريفًا. ويدخل المقتولُ فى سبيل الله مقبلاً قبل المقتولِ فى سبيل الله مدبرًا بأربعين خريفًا».

(١) انظر: تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

(٢) هذا قول أكثر أهل العربية، كما فى تفسير القرطبى ٨/ ١٦٤.

وتدخل المماليك قبل الموالى بأربعين خريفًا. ويدخل سليمانُ بن داود الجنةَ بعد الأنبياءِ بأربعين خريفًا، لمكان ملكه».

فالحسرةُ العظمى والفوتُ الأكبرُ الذى لا دَرَكَ له هو تأبيد حرمان ما أُعطى غيرك من المزيد هناك، لفوت أوقاتك فى الدنيا ههنا، ثم درك ذلك بأوقاته العامرة ههنا تأبيد مزيد جزائه ثَمَّ. وهذا هو التغابن؛ غَبَنَ العاملون البطّالين، وغبن السّابقون المخلّفين، وغبن المسارعون المثبّطين. ثم خلودُ العبدِ البطّالِ المغبون فى الدنيا فى تأبيد حرمان مزيد الغابن العامل. ومن هذا قوله ﷺ: «ما من ساعة تأتى على ابن آدمَ لا يذكر اللهَ تعالى فيها إلا كانت عليه حسرةً، وإن دَخَل الجنةَ». وفى لفظ آخر ـ وهو أشدّ ـ «إلا كانت عليه تِرَةً يوم القيامة» أى: مطالبة ومؤاخذة. فالحسرةُ فى الجنة بعد دخولها والظفرِ بنعيمها هو ما ذكرناه من حرمان مزيد العاملين فيها، ثم دوامُ الحرمان مؤبد بها، وهو كونُ العبدِ فى نقصان درجة غيره، ثم هو مخلّد فى النقصان سَرْمدًا. ومع ذلك فلا يُؤْبَه له، ولا يُفطن به، كيلا يُنغَّص عليه نعيمه.

والطرفةُ والنَّفَس إذا خلتا من اليقظةِ والذِّكْر فيهما بمنزلة السّاعة الخالية، إلا أن النبى ﷺ نصّ على السَّاعةِ ولم يذكر ما دونها، لأن اسمَ الساعة أقلُّ الزمانِ المستعمل عند العرب، ليواطئ بقوله ﷺ قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الاعراف:٣٤]. ومعلوم أنه إذا جاء الأجلُ لا يستأخرون نَفَسًا ولا طَرْفةَ عينٍ، وكذلك لا يستقدمون طَرفة ولا نَفَسًا. فذُكرت الساعة دون ما نَقَص منها؛ لئلا يخرج الكلام عن حد استعمالهم وعُرْفِهم، وليُستدل بها على ما دونها فى القلّة من النَّفَس والطَّرْفة.

وكذلك دلّ رسولُ الله ﷺ بنصّه على السَّاعَةِ على ما دونها لأنَّ حكمته من حكمةِ مولاه، وكلامَه على معانى كلامه. وقد دخلت الساعةُ فما دونها فى الأيّام التى قال الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]. قيل: هى واللهِ أيامكم هذه، وستخلو، فاشغَلُوها بالأعمال الصّالحة

قبل خلوّها منكم وانقضائها عنكم.

وكان الحسنُ يقول: يا ابنَ آدمَ إنّما أنت مراحل، كلما مضى منك يومٌ أو ليلةٌ قطعت مرحلة، فإذا فنيت المراحلُ بلغتَ المنزلَ إلى الجنّة أو النار.

فالساعاتُ تنقلنا، والأيام تطوينا، كما قال بعضُ الحكماء: مَثَلُ العبدِ فى عمره مَثَلُ رجلٍ فى سفينة تسير وهو قاعد، كذلك العبد يدنو من الآخرة وهو غافل. ويقال: إنّ العبدَ تُعرض عليه ساعاته فى اليوم والليلة، فيراها خزائنَ مصفوفة أربعةً وعشرين خِزانةً، فيرى فى كل خِزانة نعيمًا ولذّة وعطاءً وجزاءً لما كان أودع خزانته من ساعاته فى الدنيا من الحسنات، فَيَسُرُّه ذلك ويغتبط به. فإذا مرّت به فى الدنيا ساعة لم يذكر الله تعالى فيها رآها فى الآخرة خزائن فَارغةً، لا عطاء فيها ولا جزاءَ عليها، فيسوءه ذلك ويتحسر كيف فاته أن لم يدّخر فيها شيئًا؛ فيرى جزاءه مدّخرًا، ثم يلقى فى نفسه الرضا والسكون. فلو لم يتحسر العبدُ إلا على فوتِ الفضائل والمندوب إليه من الخيرات لكان فى فوت المسابقة والمسارعَة حَسَرات. فكيف بمَنْ فَاتته أوقاتُه فى السيئات وفَرطَتْ منه فى الخسارات؟! ولو لم يشتغل العبدُ فى عمره إلا بالحلال والمباحات لكان ذلك نقصانًا من الدرجات له، فكيف بمن اشتغل بالمحظورات؟!

فسبحان الله ما أعظمَ الخطرَ، وأصعب الأمرَ، وأقلّ المشاهدين لذلك، وأغفلَ البطالين! وقد قال بعضُ العلماء: هبْ أنّ المسِيء قد غُفر له أليس قد فاتَه ثوابُ المحسنين.

وقد جاء فى الأثر: إنّ بعضَ أهل الجنة بينا هم فى نعيم إذ سطَع لهم نور من فوقهم أضاءت منه منازلُهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجال من فوقهم أهل عليين، يرونهم كما يُرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، قد فُضِّلوا عليهم فى الأنوارِ والنعيمِ والجمالِ كما فُضِّل القمر على سائر الكواكب. فينظرون إليهم يَطِيرُون على نُجُب[1] تسرح بهم فى الهواء حيث شاءوا، ويتزاورون بعضهم بعضًا، يزورون ذا الجلال والإكرام. فينادون هؤلاء: يا إخواننا ما أنصفتمونا، كنا

(١) نجب: جمع نجيب، وهى من الإبل القوى الخفيف السريع.

نصلّى كما تصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فُضِّلتم به علينا؟

قال: فإذا النداءُ من الله عزّ وجلّ: إنهم كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكتسون، ويبكون حين تضحكون، ويقُومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضِّلوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]. وقد جاء فى الخبر: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْه، وعليُّون لذَوى الألباب».

• ذكر المقام الخامس من مراقبة الموقنين من المقربين:

قال الله تعالى، مخوفًا للكافة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعملُ صَالحًا فيما تَرَكْتُ﴾ ثم أجابه فقال: ﴿كَلاَّ﴾ وحقَّق قوله تعالى فقال: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩ ـ ١٠٠]. ثم نهى المؤمنين نهيًا صريحًا عن مثل هذه الحال وأخبر بنقصان مَن فَعلَ ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ أى: لا تَشغلكم عن الطاعة لله تعالى، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩] أى: المغبونون المنقوصون فى الآخرة؛ لأنهم آثروا المال والولد على الخالق الرازق، ثم أمر بالإنفاق مما رزق، وقرنه بالإيمان، وأخبر أنه استخلَفنا فى مُلْكِه اختبارًا لنا، فقال: ﴿آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، فسمع الغافلون نصف الكلام فآمنوا ولم ينفقوا، وعقل العاملون كلّ الكلام فآمنوا وأنفقوا، وما يعقلها إلا العالمون.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠] أى بالأعمال.

وكان ابن عباس يقول: هذه الآية من أشدّ شىء على أهل التوحيد، لأنه لا يتمنّى التأخير والرجوع إلى الدنيا أحد له عند الله خير فى الآخرة.

ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر:٥٦]. الحسرة هى أعظم الندامة، وهى اسم لفوت شىء لا تدارك فيه. فرّطت: أى ضيعت وونيت، وفرط منى: أى ذهب وفات. وجنب الله، قيل: على ما فاتنى من الجزاء منه فى الآخرة، وقيل: ما فات من النّصيب فى أيام الدنيا. إلى قوله: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ يعنى: إلى الدنيا عودة أخرى ﴿فَأَكُونَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٨]، وقوله ﴿أَنْ تقولَ نفسٌ﴾: من الكلام المضمر المعطوف، ومُضمره: من قبل أن تقول، أو خشية أن تقول، ومعطوفه: هو قوله: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر:٥٤] أى: اقبلوا إليه، وتوبوا، واستسلموا، وسلّموا قلوبكم ونفوسكم وأموالكم فى طاعته وعبادته، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥]، أى: اتبعوا العزائمَ من الأمور، والفواضلَ من الأعمال، فهو أحسن من الرخصِ والمباحات، مثل: الزهد والورع والخوف والإيقان، فهذا من أحسن ما أُنزل إلينا من ربنا، ثم قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِى جَنْبِ اللهِ﴾، فلما طال الكلامُ، وأُضمر معطوفه، وبَعُدَ عاطفُه للاختصار، أشكل فهمه.

وفى القرآن ما هو أشدّ اختصاراً، وأبعد من هذا إضماراً، كقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين:٧] المعنى: فما الذى يحملك على التكذيب أيها الإنسان الذى خلقناه فى أحسن تقويم بعد هذا البيان والبرهان بالدّين بالغائبات والكائنات من أمور الدين والحسنات والجزاء، ثم أحكم ذلك برده إليه فقال: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨]؟!

وكذلك قوله: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، المعنى: لا تترك أن تعمل فى الدنيا بأيامك هذه، فتدرك نصيبك غداً من الآخرة فى الدنيا، فإنك لا تدركه إلا فيها، ثم أحكمه بقوله: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧]، أى: أحسن إلى نفسك وإلى إخوانك الفقراء كالذى أحسن إليك به من المال والغنى،

فبذلك تدرك نصيبك من الدنيا فى الآخرة.

ثم أخبر الله سبحانه الكلَّ وحذّرهم فقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام:٣١]، أى: يا ندامتنا على ما ضيعنا فى الدنيا، وفاتنا فى الآخرة.

وفى الخبر: «لا يموت أحد إلا بحسرة وندامة؛ إن كان مسيئًا كيف لم يحسن وإن كان مُحسنًا كيف لم يَزْدَد».

وذلك أن الله تعالى جعل أهلَ السّلامةِ والنجاة طبقتين؛ بعضهم أعلى من بعض، وجعل أهل الهلكةِ طبقةً واحدة؛ بعضهم أسفل من بعض، فكان صاحب الشمال يتحسّر كيف لم يكن من أصحاب اليمين، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر:٣٨ ـ ٣٩]، وصاحب اليمين يتحسّر كيف لم يكن من المقربين، والصالح من المقربين يتمنّى أن يكون من الشهداء، والشهيد يودّ أنه من الصديقين. فهو يوم الحسرة الذى أنذر به أهل الغفلة، فكيف بهم فى ذلك اليوم، إذا كانوا اليوم أمواتًا، ولم يكن له حسنة، فأنّى لهم النذارة والتذْكِرة؟ كما قال: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم:٣٩]. وقد قال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٧٠]. كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥]، ﴿إِنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيْبِ﴾ [يس:١١]. وقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] يعنى: إلى ما قدمت. وقيل: حديد إلى لسان الميزان، تخاف النقصان. وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق:١٩]، قيل: بالسابقة لهم وعليهم، فهو الحق سبقت لهم منا الحسنى، وحقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، وسقط ما دونها. وقد قيل: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها، والخواتيم من السّوابق، وما بينهما زاهق. والوزنُ يومئذ الحق، ما سبق من العدل والصدق، وتمت كلمة ربّك صِدْقًا لأوليائه، وعَدْلاً على أعدائه. ألا له الخَلْقُ والأمر.

• ذكر المقام السادس من مشاهدة المقربين:

الخيراتُ هى من ثمراتِ الإيمان، والصالحاتُ هى مقتضى اليقين، واللعبُ مقتضى الشك، والسمعُ والبصرُ وصفان للمتقين، والعمى والصممُ وصفان للشك[1]. تنتظم هذه المعانى فى قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣]. فدل أن الإيمان يأمر المؤمنين بالبر والتقوى، وقوله تعالى مخبراً عمن أيقن فسمع وأبصر فينال العمل الصالح: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]. وقوله تعالى فى وصف اللاعبين: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان:٩].

ثم ذكر حالهم لعدم اليقين فقال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠] لأنهم لم يكونوا موقنين، فلما جاءهم اليقين، وهو المعاينة، أبصروا وسمعوا [ما كانوا كذبوا به مما أُخبِروا][2]، فقالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۞ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر:٤٦ ـ ٤٧] فوصفهم بشدة السمع والبصر حينئذ لما أيقنوا، فقال عزّ وجلّ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨] أى: ما أسمعهم وأبصرهم اليوم لما جاءونا فرأوا ما عندنا، وهذا للمبالغة فى الوصف، كما تقول: أَكْرِم وأَعْظِم به، أى: ما أكرمه وأعظمه. فكذلك إذا أتيته اليوم وأنت موقن سمعت ما لم تسمع وأبصرت ما لم تبصر[3] قبل ذلك، ولكن شغلتك الأزواجُ التى خَلَق، والأشكالُ والأشباهُ التى أظهر، فتألَّهْتَ إليها، ووقفتَ معها، ولو فَرَرْتَ منها إلى الله تعالى لفررت إلى خيرِ مَفَرٍّ، ولآواكَ عنده فى أحسن مقر[4]، وقد أمرك بالفَرار منها[5] إليه لو قبلتَ، ونهاك عن التألّه إليها لو سمعت، وبيَّن لك النذارةَ لو فهمت، وجعلَ ما خلَق من الأزواجِ تذكرةً به لو عرفت،

(١) كذا فى المطبوعة والمخطوط، ولعلها محرّفة عن «الشّاكين».

(٢) ساقطة من (ط).

(٣) فى (ط): «ما لم ترَ».

(٤) فى (ك): «مستقر».

(٥) فى (ك): «منه».

ورادَّةً إليه لو أنَّكَ للذكر اتّبعت، ومُشَوِّقةً إليه لو كنت لقربه أحببت[1]، أمّا سمعتَه يقول: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩]، أي مثلين وشكلين، لكي تذكروا الله بها، وتشتاقوا إليه منها، ثم قال: ﴿فَفِرُّوا إلى الله﴾ أي: عنها بالزهد، ثم قال: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ﴾ [الذاريات:٥١] أي: لا تؤلهوا معه إلهًا، ولا تشركوا بتألهكم إليه إياها.

فهذا فهمُ المقربين عن سمعهم، بشهادة أبصار قلوبهم، فعندها كان استجابتُهم له، كما قال: ﴿إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الانعام:٣٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الشورى:٢٦].

ولكن كيف يسمع من يُنادَى من مكانٍ بعيد؟! وكيف يُبصر مَنِ القُفل على قلبه عَتيدٌ؟! وكيف يستجيب مَن لا يَسْمع؟! وكيف يَشْهد من لا يبصر؟! وقد قال الرسول ﷺ: «حبُّك للشيء يُعْمي ويَصُمّ».

فالهوى يعمى عن الحق، والشّهوةُ تَصُمُّ عن النُّصح والصدق.

وكذلك لو أحببته لنظرتَ إليه، ولو نظرتَ إليه لعَميتَ عمّن سواه، ولو أقبلتَ عليه لاستمعتَ إليه، ولو سَمِعْتَ لصَممتَ عَن غيرِه، ولو أحبَّك لكان سمعَك وبصرَك وقلبك ويدَك وناصرك ومؤيدك، تدعوه فيجيبك، وتَسألُه فيعطيك، وتنصحُ له فينصح لك؛ كذلك جاء الخبر بذلك، فشغلك به عنك، وفرَّغك له منك، فكيف تسمع عنه، وتنظر إليه، وتتقلب عنده، وتتحرك به، لا بنفسك وهواك، ولا بشهوتك ودنياك؟!

فهذا وصفُ حبيبٍ عن تقلّب حبيبٍ، وخبرُ محبوبٍ عن تثبيتِ محبوب.

فإذا تيقّن العبدُ يقينَ عينٍ لا يقينَ ظنٍّ وسَمْعٍ بما ذكرناه من سرعةِ فوتِ الوَقْتِ، وفوتِ دَرْكِه، شغله الغمُّ والحزنُ على ما فات عن مثل ما سلف مما ندم عليه في مستقبل الأوقات. فلم يضم إلى الفوتِ الأوّل فوتًا ثانيًا؛ لحزنه وندمه

(١) في (ك): «ورادة إليه لو عقلت، ومشوقة إليه لو أحببت».

عليه، فكيف يُردفه فى الحال بما يُشبه ما نَدِمَ عليه من سُوء الأعمال، وما لا يُحمد عاقبته، ولا يُغتبط به فى المآل؟!

فمَثَلُ العبدِ المتيقظ فى آخر غفلته مَثَلُ عبدٍ كان عليه عمل لا بدّ أن يعمله فى يومه ذلك، إلا أنه لُهِيَ عنه لغفلة مُلْهية، أو نومة مُنسية، فلم يَفِق لعمله ذلك الذى لا بدّ منه إلا بعد العصر، فلا يُسأل عن حِرصه وانْكماشه وتَشْهيره وبداره فى بقية نهاره، ليدرك به ما فاتَهُ من أوّل النهار، فهو يود أنّ وقتَه ذلك إلى الليل مُدَّ له أضعافه، أو رُدَّ إلى أوّل النهار ليُدْرِك ما فَاته.

فهذا حالُ التائب المتيقّظ من رِقْدته. وهذا لا يَسْتَبِينُ له إلا بعد الموت لمعاينة تَقَضّى الأوقات، ولليقين بعدم دَرْكِ ما فات. فهناك وقعتِ الندامةُ الكبرى، وحينئذ حلّتِ الحسرةُ العظمى.

فالحزمُ عند العقلاءِ الموقنين هو الانكماشُ والتّشمير فيما بَقِى من العُمر القصير؛ لأنَّ الاشتغالَ بما فات فى وقت دَرْكِ مثله فى المستقبل هو إضاعةٌ ثانية لما هو آت. فَحَرِصَ هذا المتيقظُ واجْتَهَدَ[1] أن يكون له فى كل وقت وقتٌ، ومن كلِّ ساعة نصيبٌ، فأودَعَ فى كلِّ خزانةٍ من ساعاته التى هى خزائنُ أعماله شيئًا فشيئًا؛ لئلا يرى خزائنه فارغةً غدًا، فيتحسر على فَراغه منها. وهذا طريق أهل الرجاء الذين تمنوا زيادة الأعمال، ورغِبوا فى طول البقاء؛ بحسن خدمة المولى. وهو مقام التائب المستقيم ليتدارك بحديث الأوقات ما فَرَط منه من الغفلة فى القديم. فهذا هو الحزمُ والاحتياطُ عند العلماء. فإن يكن الأمرُ صعبًا شديدًا كما يُحدَّث عنه كان قد سَلِم بحسن توفيق الله تعالى من صعوبته. وإن كان الأمرُ سهلاً قريبًا كما يَرْجوه كانت الأعمالُ درجاتٍ والفضائلُ مقاماتٍ.

• ذكر المقام السابع من مشاهدة الموقنين:

اعلم أنّ ما ذكرناه من تدارُكِ الأوقاتِ خوفَ فوتها ليس هو بتمنى مكانٍ دون مكان، ولا هو بانتظار وقتٍ ثانٍ، الذى هو فى الأصل ذكر[2] الوقت الذى هو

(١) فى (ط): «واجتهاده» وأثبت ما فى (ك).

(٢) فى (ط): «فكر» وليست فى (ك).

فيه، ولا توقّع حالٍ سوى الحال الذى هو يليه، إنّما هو صومُ يوم، أو قيام ليلة، أو ذكر فى ساعة، أو جَمْعُ همٍّ عن شتات قلب، أو قطع لأثرٍ فى خَطَرَ. ويكون ذلك أيضًا غضَّ طرفه، وصونَ سمعه، وكفَّ يده، وحبسَ قدمه، وصمتًا عن كلمة دنيّة، وتركَ لُقْمة شهيّة، ونقصانًا من قُوت، وزيادةَ جوعٍ للمقيت، وأمرًا بكلمة رشيدة، ونهيًا عن فعلة دَنِيّة، وعَقْدَ نيةٍ حميدة، وحلَّ نيةٍ ذميمة، وتجديدَ توبة، وإعمالَ قَلْبٍ فى فكرة، وإخراجَ سُوءِ ظنٍّ، واعتقادَ حُسْنِ ظَنٍّ، واستقامةً، وصحةَ عزمٍ فى قصدٍ، وتسببًا إلى ما يقوّى العزمَ، ومعونةً على برٍّ وتقوى.

وهذا كلّه يكون فى الوقت، ويُحْدِثه فى الحال، لا يُسوِّفُ به ولا ينتظر منه، ولا يتوقعه فى وقت ثانٍ، ولا يؤخره إلى زمان دون وقته، ولا يتربّص به فى مكان دون مكان. فهذا هو التدارُك للأوقات فى وقتك الذى أنت فيه، خشيةَ فوتِ الوقتِ، فيحصل على التّسويف والتّمنى، أو فى الانتظار والتراخى؛ فهذه من جنود إبليس يقطع بها المريدين، وهو مقام المغترين، وأحوال البطالين الذين وُكِلُوا إلى أنفسهم، وتُرِكُوا مع هواهم، ولم يُتَدارَكُوا فى أحوالِهم، ولم يُقدِّمُوا لغدهم، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُم، والوقتُ إذا انقضى فُقِدَ ولم يُوجَد إلى يوم القَضَاء، والسَّاعةُ إذا مرّت طُوِيَت فلم تُنْشَر إلى يَوْمِ النُّشور، وإنما يُنشر مثلُها، ويُخْلَق شِبْهُها.

فإذا أيقن العبدُ عَلِم أنّ عمرَه كلّه يوم، وأنّ يومَهُ كلّه ساعةٌ، وأنّ ساعته كلّها وقته الآن، وأنّ وقته حاله، وأن حاله قلبه، فأخذَ من حاله لقَلْبه ما يقرِّبه إلى مُقَلِّبه، بنهاية عمله، فعَمِل أفضلَ ما دَلّ عِلمُه عليه، وما ندبه مولاه إليه، ومما يحب أن يفجأه عليه، فيكون ذلك خاتمةَ عمله الذى يَلقى مولاه به. ثم أخذ من وقته لحاله ما يُصْلِح حالَه لقلبه، ويُقَوّى قلبه، ويخلّصه لربه. وأخذَ من ساعته لوَقْتِه ما يُزَيِّن به حاله عند ربه، وأخذَ من يَوْمِه لساعته صلاحَه فيها وحاجتَهُ إليها، وأخذ من شَهْرِه ليومه، فكان شهرُه يومَه، وكان يومُه ساعتهُ، فشغله وقته عن ساعته، وشغلَه حالُه عن وقته.

فكان على هذا مراعيًا لوقته، محافظًا على حاله، قائمًا على نفسه، جامعًا لهمّه، مُحصيًا لأنفاسه، مُراقبًا لرقيبه، مجالسًا لحبيبه، لا يخرج عنه نَفَسٌ فى

أدنى وقتٍ، إلا فى ذِكْرٍ لمذكور، أو شُكْر على نعمةٍ لمُنعم، أو صبرٍ فى محنة عتيدة، أو رضًا عند شدّة شديدة. ويكون فى ذلك كله ناظرًا إلى الرقيب، مصغيًا إلى القريب، سائحًا إلى الحبيب، لا ينظر إلا إليه، ولا يعكف إلا عليه، وقد جعل العمرَ يومًا، واليومَ ساعةً، والساعةَ وقتًا، والوقتَ حالاً، والحالَ نَفَسًا، والنَّفَس مراقبةً، والمراقبةَ مواجهةً، فتوجّه فى وجْهته فلم يَنْثنِ، وساح فى قربه فلم يَنِ، فكان من الإيمانِ على مزيد، ومن اليقين فى تجديد، وأُعطى من الحياة الطيبة بغيرِ حساب، وكُشف له عن قَلبه الحجاب. فكانت المعرفةُ مقامَه، وقصُرت عليه أيّامه، فكان وقتُه وقتًا واحدًا لواحدٍ، وكان قلبُه واحدًا لواحدٍ، وهمُّه منفرِدًا لمنفردٍ.

وهذا حالُ الأبدالِ، الذين هُم من الرُّسل أمثال، وعددُهم فى الموقنين قليل، ونصيبهم من اليقين وافرٌ جليل، وهم المقرّبون والصّديقون. ومَن عَلِم ما ذكرناه على يقين فهو من الصالحين، ومَن آمن به ولم يشكّ فيه لأهله إيمانَ تصديقٍ فهو من الموقنين، ومَن شهد منه شهادةً يكون له منها مطالعات وزيادة فهو من الشّاهدين.

وجميعُ ما ذكرناه من مراقبة المؤمنين، وشهادة المُقَرَّبين، يُدرَك بأحدِ مقامين؛ من أقيم فى أحدهما جَمع له ذلك استقامةً فى توبة وعَمَلاً بعلم. فمن كان مقامه التوبةَ وحالُه الاستقامةَ رُفع إلى شهادة المحبين، ومن كان مقامُه العلمَ وحالُه العملَ بعلمه تحقّق بنَعْت الخائفين. وهما حالا العارف الدائمِ الوجدِ بقرب القريب، القائمِ بالشهادة بحضورِ الشّهيد. فأنفاسُه وطَرْفاتُه صالحات، وتصرفاته وآثاره حسنات، وأفكاره وأذكاره مشاهدات. فهو حاضر فى تصريفه، متيقظ فى تقلبه. وبهذا وُصف العارفُ والدّائمُ الوَجْد.

وحُدِّثت عن بعض هذه الطائفة: أنه دخل على بعض المنقطعين إلى الله تعالى من أهل المراقبة، فقال له: أحصيتُ من نِعَم الله تعالى عليّ فى نوع واحد أربعةً وعشرين ألفَ نعمة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: حسبت أنفاسى فى اليوم والليلة فوجدتُها أربعةً وعشرين ألف نَفَس.

ويقال: إنّ الطرفاتِ ضِعفُ ذلك؛ لأن كلَّ نَفَسٍ طرفتان.

وسمعتُ أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الأنبياء: كيف تؤدّى شكر نعمتى عليك، ولى فى كل شعرةٍ نعمتان: أن ليّنتُ أصلَها، وأن طَمَّنْتُ رأسها؟

وقال بعض العلماء: روى ذلك أيضًا عن علىٍّ عليه السلام: ليس شىءٌ أعزَّ من الكبريت الأحمر إلا ما بقى من عُمر العبد. قال: ولا يعرف مقدارَ ما بقى من عُمره إلا نبىّ أو صدِّيق.

وقال بعضهم: لا يَعرف قدرَ ما بقى من عمره فى العزة إلاّ من عَرَف يَنبوعَ الكبريتِ الأحمر، فإنّه يقال: إنّه عيون تنبع فى الظلمات، لا يعرفها إلا الأبدال.

والكبريت الأحمر هو كيمياء الذهب، الذى يُعمل منه الذهب الخالص، وإذا أُلقى منه اليسير على كيمياء الذهب المستعمل ثبت على حاله، وإلاَّ استحال وتغيّر بعد سنين.

ولا أعلم ذُكر عن النبى ﷺ الكبريت الأحمر إلا فى حديث على عليه السلام، الذى وصف فيه الأبدال، فذكر عدتهم ونعمتهم، وقال فى آخر وصفهم: «هم فى أمّتى أعزُّ من الكبريتِ الأحمر». ولا ذُكر الذهب الإبريز إلا فى حديث الابتلاء: «إن الله تعالى يجرِّبَ عبده بالبلاء كما يجرّب أحدُكم ذهبه بالنار، فمنهم من يخرج كالذهب الإبريز، ومنهم من يخرج أسودَ محترقًا، ومنهم من يخرج بين ذلك».

* * *